باب الشعر والانشاء

ننشر في هذا الباب تاريخ حياة نوابغ الشعراء المتقدمين والمتاخرين وبعض منتخبات من شعرهم

اديب اسحاق

شاعر · ومنشيء · وخطيب

لحضرة الكاتب الاديب انيس افندي بواكيم الراسي

من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٩ اختطف داء الصدر من عالم الادب اربعة شبان عقدت عليهم الامال ورجا الوطن العزيز منهم نفعاً وهم المأسوف عليهم اديب بك اسحق والشيخ خليل اليازجي والياس صالح والشيخ نجيب الحداد · رجال ذكرهم يغني عن الوصف وساتكلم في مقالتي هذه عن الراحل الاول منهم عن ارض التعاسة والشقاء المرحوم اديب بك اسحق

وليس لدينا كثير مما يعتمد عليه من اوصاف الاديب فهذه كلها يجب على القاريء استحضارها بنفسه من درس كتاباته اذ ان الكتابة نوعان نوع ترى فيه صورة الكاتب بين الاسطر وآخر لا يدل على شيء من احواله · وكتابات الاديب من النوع الاول فان كلماته الوان تلون حياته لنا وتظهره كما هو · ولا باس من الاتيان على لمعة من تاريخ حياة الفقيد نعتمد فيها على ماورد في الدرر لجامعها الاديب ولسنا نورد منها غير الجزء اليسير الذي لا غنى عنه حين الاتيان الى النظر في كتاباته

ولد اديب بك اسحق في دمشق الشام عام ١٨٥٦ وقضى ما سوفا عليه في صباح الخميس الواقع في ١٢ حزيران ١٨٨٥ غير متجاوز تسعة وعشرين ربيعاً · وكان منذ الطفولية ذكي الفواد وتلقى مبدىء الفرنسوية والعربية في مدرسة الاباء العازريين حيث كان في مقدمة اقرانه وكان شديد الميل الى الشعر فابتدأ ينظم على ما يقال في العاشرة من سنيه وذلك من دلائل القوة العقلية الخارقة التي لا تظهر الا في القليلين من النوابغ · وما بلغ الحادية عشرة حتى دخل في خدمة الجمرك براتب قليل لكن هذا لم يكن لينسيه ما اوتيه من الفطرة الشعرية فكان ينظم قصائد وموشحات في ساعات الفراغ · ولما بلغ الخامسة عشرة انتقل الى بيروت بقصد اعانة ابيه في خدمة البريد العثماني وهنا عرف كثيرين من ادبائها ثم نال في السابعة عشرة وظيفة في جمرك بيروت لم يلبث بها الا مدة قصيرة اذ ان ميله الى الانشاء نزع به الى الانصباب على هذا المطلب فتولى تحرير جريدة التقدم التي زينها بكثير من مقالاته الشائقة · وكان يشغل اوقات العطلة بالنظم والمطالعة فالف (نزهة الاحداق في مصارع العشاق) · وفي اثناء هذه المدة انضم الى جمعية زهرة الآداب فاشتهر فيها بقوة الخطابة وثبوت الحجة وقبل ان يبلغ العشرين كتب في اثار الادهار فصولاً تشهد له بطول الباع وسعة الاطلاع · وترجم رواية اندروماك عن راسين الافرنسي فمثلت ثلاثاً بقصد اعانة البنات اليتامى فنالت اقبال القوم · ولما جاء الى الاسكندرية مساعداً للمرحوم سليم النقاش في التمثيل العربي نقحها ونقحها بشعره الرائق وفي الاسكندرية ايضاً عرب رواية شارلمان فاستحسنها الجمهور كثيراً

بعد ذلك توجه الى القاهرة وفيها لزم العلامة جمال الدين الافغاني فاخذ عنه كثيراً من الاراء الفلسفية والمذاهب العقلية وانشأ جريدة مصر في سنة ١٨٧٧ حين لم يكن يملك سوى عشرين فرنكاً ثم نقلها الى الاسكندرية مشتركاً في تحريرها مع المرحوم سليم النقاش فنجحت نجاحاً يذكر ثم اصدرا صحيفة « التجارة » يومية فلقيت مالقيت اخيها غير انهما الغيتا سوية لاسباب فنزع اديب الى باريس حيث انشأ صحيفة «القاهرة» وفيها ارخى للطبع العنان فملأ اعمدتها بمقالات بليغة تشوبها مرارا كدورة الحدة · وفي باريس سمع مشاهير الخطباء فسولت له النفس ان يحذو حذوهم فبلغ من حسن الالقاء مبلغاً يذكر · على ان برد باريس وعدم اهتمامه بصحته مهدا السبيل لعلة الصدر التي لم تخرج منه الا بخروج الروح فعاد الى بيروت وتولى تحرير التقدم للمرة الثانية · وفي سنة ١٨٨١ عاد الى مصر فعين وكيلاً لقلم الانشاء والترجمة بديوان المعارف واعاد جريدة مصر الى الوجود ثم عاد الى سوريا يوم اضطرمت نار الفتنة العسكرية ولما رجع الى الاسكندرية بعد ان احتلها الانكليز أُنتدب الى الشام حيث تولى تحرير التقدم ثالثة وهنا اشتدت عليه وطاة العلة فنصحه المؤتمنون بالرجوع الى مصر فعاد اليها بعد شق النفس وقضى فيها بضعة ايام لم يحصل فيها على نفع فعاد الى بيروت وقضى ثلاثين يوماً من وصوله اليها

وكان الاديب سريع الانفعال قوي التصور دامغ الحجة وكل ذلك ظاهر في كتاباته · ومما يعاب من اطباعه الحدة الى

حد يخرجه عن نفسه وقد سبقت له الحدة متاعب جمة لكنها حفظت لنا من قوة الكلام ابدع مثال . ولم يكن يتوقى العوامل التي تذهب من قوته وتحط صحته بل كان مفرطاً في العمل مكثراً من الانغماس في اللذات كغيره من رجال الشهرة مثل بيرون وشلي ومارلو من شعراء الانكليز فتقوضت اركان بنيته دون ان يبلغ قمة مجده ومنتهى آماله . وكان كما سبق القول شاعراً مطبوعاً على انه كان بدوياً بحتاً فنسج على منوال المتقدمين ولو فطن الى الذوق العصري لاجاد فيه كل الاجادة وقد نظم من كل انواع الشعر وطرق طرائقه العديدة فترك منظومات على غاية ما يكون من الرقة والانسجام غير اننا لا نقدر على وضعها في الطبقة الاولى من القريض مع مافيها من التفنن والنكات البديعية ومن قصائده قصيدة نظمها عند عودته من باريس الى بيروت مطلعها

عدنا وكانت اليك عودتنا يا وطناً لم يغب عن الفكر
ومنها فاحتملتنا اليك جارية كانها بالذي بنا تدري
يكاد ماء العباب يغرقها وقلبها مثلنا على جمر

وفي هذا اشارة الى علته . ومن نظمه ايضاً قوله

بقلبي من اذى دهري لهيب لدمعي فوقه اسكاب
فلا تطفي الدموع لهيب حزني وغير القبر لا يطفي التهابي
كزيت معدني ليس يطفى بماء وهو يطفأ بالتراب

ولواردت سرد المشهور من منظوماته لطال بي المدى لكنني اكتفي بالاشارة الى ان اكثرها جيد وفي بعضها تكلف لايظهر الا للناقد الخبير

اما قوته في الوصف فحدث عنها ولا حرج فقد كان يصور المناظر الطبيعية والعواطف القلبية للعين كما هي ويلبسها من فصاحته وبلاغته ثوباً ياخذ بمجامع القلوب مثال ذلك وصفه جرحى الحرب وعيشة الخلاء حيث يقول

« . . . . ومن فوق ذاك جبال لبنان تستهزئ بعاديات الزمان لزم رؤوسها الشيب فازدادت به جمالاً . فنادى لسان حالها رب زدني كمالاً . فكأن في هامها الشتاء وفي عنقها الربيع وفي قلبها الخريف وتحت اقدامها الصيف والبحر من وراء ذلك يحدجها بعينه الزرقاء . فتردد صخورها الصماء فيعود راغياً وجداً مزبداً حقداً . يدفع سابق موجه اللاحق انكساراً كما انهزم الجيش فارتدت طلائعه الساقة فراراً »

فاذا جلست يوماً الى جانب البحر وقرأت هذه النبذة رايت ان الكاتب قد وصف منظراً من اجمل مناظر الكون بكلمات قليلة على منتهى الدقة والاحكام

ومثل قوته في الوصف مقدرته على الحث وانهاض الهمة والهجاء والرثاء وكذلك مقدرته على تقسيم موضوعه الى فروعه ليظهر للنواظر باجلى بيان فانها تشف عن قوة في العقل والادراك وحدة في النظر الى اعماق الامور . ومالك الان تراجع مقالاته في الحقوق والواجبات والكتابة والانشاء والتعليم الالزامي لترى صحة هذا القول . وان من يقرأ فصوله في الكتابة ويمعن النظر فيها وفيما اقتطفه هنالك من مقدمة ابن خلدون لابد من ان يرى شدة المشابهة بينهما في متانة التركيب ومراعاة قوانين البلاغة ولاغرو فاننا نسمع ان الاديب كان شديد التعلق بالمقدمة وانه قرأها مراراً حتى صار في امكانه ان يستحضر عباراتها لدى الحاجة بحروفها من صفحات الذاكرة

وقد كان خطيباً مفوهاً جريئاً فصيحاً تثير حركاته واشاراته في القلوب ما اراد من العواطف . فكان يسكر القوم تارة بخمرة الغزل ويغذيهم طوراً بغذاء الحكمة ويهيجهم مرة بصواعق كلماته

وقد كان الاديب يشفق على المرأة ويرق لحالها وما تلاقيه من نكران الحقوق والجور في الشرق ويحض الشرقيين على رفع مقامها واعلاء شأنها وتهذيبها على اقوم المبادئ والاخذ بناصرها وترقية آدابها واذا كان قد ساعد في ما ارتأى فعله ام لم يساعد فغايته نبيلة وقصده جليل . وكان يعتقد بان الرجل هو مصلح المرأة وله فصول في ذلك بعضها موجود في مقدمة روايته الباريسية الحسناء التي عربها عن الافرنسية ومن جملتها ابيات اوردها كشاهد على آرائه

حسب المرأة قوم افة من يدانيها من الناس هلك
ورآها غيرهم امينة ملك النعمة فيها من ملك
انما المرأة مرآة بها كلما تنظره منك ولك
فهي شيطان اذا افسدتها واذا اصلحتها فهي ملك

وعلى الجملة فقد كان الاديب نابغة من نوابغ عصرنا اخنطفه الدهر من يد العالم العربي

والدهر نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

امير ملكي تاجر خمر — اشتغلت جرئد فرنسا وهولانده بمنشور اذاعه البرنس اوغوسطوس جان دي بوربون من احفاد لويس السابع عشر يقول فيه ان نفسه صارت تابى العيش من الاموال التي يجمعها له انصاره من الحزب الملكي فعزم على ان ياكل خبزه بعرق جبينه غير عابئ بكلام الناس عنه لذلك انشأ محلاً تجارياً في هولانده للاتجار بالخمر . فليذكر ذلك شبان الشرق البطالون